إذا عشق الراهب

كُتبت سنة ١٤٠٥هـ

قصةُ عابدٍ مُتَبَتِّلٍ ، في صومعةٍ قديمة ، منعزلة فوق جبل يُطِلُّ على طرف المدينة .

نزل هذا العابد مرةً من صومعته في الثلث الأخير من الليل ، ليمرَّ بخمّارةٍ وملهى ليلي كانا يقبعان بسفح الجبل .

مشى العابد لغايته ، مُطْرِقًا رأسَه ، وفجأةً مدَّ بصره ، ليرى الفتنة كلها أمامه : فاتنةً من بائعات الهوى ، كانت قد خرجت لتوّها من المرقص ، وإذا بها تقف تجاهه ، وتُحَدِّقُ فيه!!

ولبرهةٍ يسيرة : بدأت قصة عذاب هذا العابد ، حيث وقع في حبائل الفتنة ، مأسورًا قلبُه في عشقها ، غارقًا في جمالها ! ووقعت هي أيضًا في أسْرِ حُبّه ، لاهِيةً في سحر طُهره ، حيث رأت على وجهه نضارة نور لم تكن تحسبها موجودةً على وجه الأرض !!

لكن العابد انقاد للفتنة ، وترك الصومعة !!

وبعد مدّة .. وقفت فاتنتُه على خِوَانِهِ (طاولته) ، تلومه على غُلُوِّه في السُّكْر والعربدة ، وتُذَكِّره بماضيه الذي أحبته فيه .. وأكثرت من اللوم ، فانفجر قائلا :

لا تَعْذُليني وكُفّي ألْسُنَ النارِ — إني يُكابِدُني جَيّاشُ أسراري
لا تَعْذُليني ، وما تدرين ما قلبي — وما يُصَرِّفُ أحوالي وأقداري
لا تَعْذُليني ، فإني خُضْتُ في بَحَرٍ — حتى حَوَاني ، فما أحسنتُ إبحاري
ما كنتُ أحسب أن العشق يُغرقني — في لُجّةِ الإثم ، مَغْلُولاً بأوزاري
وما ظننتُ هَوًى يومًا سيُظْلِمُني — حتى هَوَيْتُ هُوِيَّ الكوكبِ الساري
لله .. كيف عرفتُ العشقَ؟! يَحْجِزُه — عني تسابيحُ أسحارٍ وأسحارِ

لله .. كيـــف عَــدا قلبًـــا يُــــحَصِّنُه		دِيـــنٌ وزهــــدٌ بأســـوارٍ وأســـوارِ

*****

مــاذا فعلــتِ بقلبــي ؟! أنــتِ قــاتلتي		لــولا هــواكِ بقلبــي ثُــرْتُ للثــارِ
أسْــلَمْتِ قلبــي لنــارِ الــذنبِ تُــحْرِقُه		حتــى تَعَالَــىٰ دُخَــانُ الإثــم والعــارِ
لم تُبــقِ نــارُك في الأحشــاءِ مُوْرِقَــةً		لم تُبــقِ غــيرَ أُوارِ الشــهوةِ الضــاري
مــاذا لَــهاني ؟! وقلبــي صــارخٌ لَــهِفٌ		صــوتٌ تغــلغلَ في نــفسي وأقطــاري
مـاذا لَـهاني؟! عـن القلـب الـذي انْصَـدَعَتْ		صَرْخاتُــه عـــن تَقــيٍّ سِــيقَ للنـــارِ
لا تحسـبي الفسـقَ مـن طبعـي ومـن خُلُقـي		فــما أحَــسَّ العَــرَا مَــن دهــرَه عــاري

*****

ألســتِ أنــتِ التــي قــد كنــتُ أحــذرُها		في معبـــدِ الطُّهـــر دَعّـــاءً بأســـحارِ
أبكــي ، فتبكــي عيــونُ الــنجمِ أنــداءً		والبــدرُ كَـــلَّلني مــن نــورِه الســاري
في معبـــدٍ يـــأنف الـــدنيا وزينتهـــا		مــن صــامت الصــخر ، بــالإيمانِ زَخّــارِ
تبـــدو عَتاقتُـــــهُ للعــــينِ مُوحِشَـــةً		ذاك الجـــلالُ مغشَّـــى ثـــوبَ أسرارِ
رَنَّمْــتُ فيــه ، فغنَّــى الصــمتُ أصــداءً		ســــمعتُها شَـــــدْوَ أرواحٍ لأبــــرارِ
مــا قــاطعَ الصــمتَ إلا صــوتُ غانيــةٍ		مـــن بـــينِ عَـــزْفٍ وقَهْقــاهٍ لِخُـــمّارِ
قــد كنــتُ أســمعُه همسًــا ، ويســمعُه		غــيري صَــخوبًا ؛ فــإني بــين أســتاري
مـــن حانـــةٍ شَـــعّتِ الأضـــواءُ قانيـــةً		قـــد تمـــلأُ الأرضَ ، إلا نـــورَ إبصـــاري
قـــد كنـــتُ في عـــالمٍ مـــا كـــان يُشـــبهه		إلا خيـــالُ الـــورى عـــن جنّـــةِ البـــاري

*****

حتــى عَرَضْــتِ لقلبــي فتنــةً وَهَجَــتْ		شَــعَّ الجــمالُ بهــا مــن مــارِج النــارِ
حـــدّقتِ فيَّ ، وفي العينـــين بارقـــةٌ		مـــن نـــار إبلـــيسَ ترمـــي شَرَّ أســـحارِ
أطرقــتُ لــلأرضِ خوفًــا مــن جمــالكمُ		لكـــنَّ حُبَّـــكمُ قـــد غـــاص أغـــواري

حُبًّـــا رآكِ مـــن اللـــذاتِ أفْتنهـــا　　لم يُبْــقِ منـــي ســوى أشــلاءِ آثــارِ

*****

هــذي قضــيتُنا ، قـد عِشْــتُ حُــرْقتَها　　وعِشْـتِ أنـتِ ، كـما أنـتِ .. لِخَمَّــارِ
هيّــا فَكُــفّي ، فــإن العــذلَ فجّــرني　　إن تعــذُليني ، فقــد أفشــيتُ أسراري

فخارت قواها ، وكانت تقف على رأسه تلومه ، لتجلس على خوانه بجواره ، وكَفّاها على وجهها ، لتقول باكيةً :

ربّــاهُ ! مــاذا يريــد الكــونُ ، ربــاهُ ؟!　　منّــي ، ولســتُ ســوى إحــدى صــباياهُ
ربّـــاه ! إني نثـــرتُ الحســـنَ أبذلـــهُ　　أســتعطفُ الكــونَ ، أســتجديه رُحمــاهُ
ربّــاه ! كــم مــن عنــاقٍ كنــتُ أُلْهِبُــهُ　　للكـــون ، مـــا ضَـــمّني يومًـــا جناحــاهُ
ربّــاه ! إني ســقيتُ الكــونَ مــن شــفتي　　سُــكْــرًا ، وغنّيْــتُ ، حتــى قــال : أُوّاهُ
ربّـــاه ! إني رقصـــتُ الحـــزنَ ، أدفنُـــه　　ومـــا شـــعرتُ بـــأني في ثنايـــاه
ربــاه ! إني رويــتُ الكــونَ مــن جســدي　　لكــنَّ دِفْءَ الليــالي الـحُمْــرِ أظــماهُ
حتــى انتبهــتُ ؛ فــإذْ بي عنــده سَــخَطٌ　　ولعنـــــةُ الله حَلّـــــتْ في برايـــــاه
قـد كـنتُ في عالَـمٍ مـا كـان يُبْـصِرُني　　إلا جحيمًـــا مـــن اللـــذاتِ يَصْـــلاه
هـذا أنـا!! صرتُ ثـأرَ الكـونِ ، يَطْلُـبُني ،　　جُــرْمي : هــو الــحُسْنُ ، لم أمنعْــه إيّــاهُ

*****

حتـــى رأيتُـــكَ عُلْوِيًّـــا ، بُعثـــتَ إلى　　الــدنيا ، لِتُنقِــذَ حُسْــني مــن رزايــاهُ
أحببـــتُ فيـــكَ ضـــياءً كنـــتُ أفْقِـــدُه　　نُــــورًا عــــلى جبهـــةِ الـــدنيا مُـــحَيّاه
أتيـــتُ مفتونـــةً بـــالنور ، أحســـبُه　　يومًـــا سَيَكْسُـــو عُرِيًّـــا عِشْـــتُ أُكْســاه
نَــزَفْتُ حُــسْني ، أردتُ الطُّهْــرَ يغســلُه　　تَبَــــرَّكَتْ شـــــفتي تَـــــقْبِيلَها فـــــاهُ
أَطَفْـــتُ فِتنـــةَ جســـمي حـــولَ قِبْلَتِـــه　　عســـى طـــوافي بـــه يمحـــو خطايـــاه
مـا كنـتُ أحسـبُ أن الطُّهْـرَ يُنْجِسُــهُ　　حُسْـــني ، وأن الضـــياءَ العُـــرْيُ أطفـــاهُ

فالفسـقُ إن كـان مـن طبعـي ومـن خُلُقـي فـــالرُّوحُ في طُهْـــرِه مـــا زال يأبـــاهُ

*****

حتــى عَرَضْــتَ لقلبــي فتنــةً طَــهُرَتْ مِرْآتُهـــا كشـــفتْ للحُســـنِ مخـــزاه
عَــرَّتْ جمــالي ، فلــم أُبْصِــرْ بــه إلا ثوبًـــا مـــن العـــارِ والآثـــامِ يغشـــاه
في لحظــةٍ .. والضــميرُ الــمَيْتُ مُنتبِــهٌ مســـتنجِدٌ مـــن جحـــيمٍ قـــد تَلَظّـــاهُ
لــو لم أرَ الطُّهــرَ فيــكَ مـا شـعرتُ بـه قـد كنــتُ أحســبُ أن النــاسَ أشــباهُ
الإثـــمُ طينـــتُهم ، والعـــارُ مَنْبِـــتُهم صَرْخـاتُ أرواحهـم تاهـتْ ، وهـم تـاهوا

*****

هــذي قضــيّتُنا ، قـد عِشْــتُ حُرقتَهــا مــاضيَّ فيهــا لمــا اسْتَقْبَــلْتُ ويــلاهُ
قـد عِشْـتُها، لـيس لي فيهـا سـوى أَلَـمي وعِشْـــتَ أنــتَ عـلى المــاضي وذِكْـراهُ

*****

فقام ، وأخذ بيدها ، ليخرجا من المرقص ، وهو يقول :

قُـــومي إلى الله ، نَسْـــتَقْبِلْهُ دَمْعَـــتَنا في غــير هــذا المكــانِ ذُقْــتُ رُحمــاهُ
إني قــرأتُ : بــأنّ المجــرمين بَكَــوْا فاســــــترحموا اللهَ ، واللهُ هـــــــو اللهُ